إعادة البناء الاسلامي والسلطة السياسية

د. اسماعيل راجي الفاروقي

(أ) المعنى الغيبي والقيمي للتوحيد :

يتمثل جوهر الممارسة الدينية في الاسلام في التوحيد ، أي شهادة أنه لا اله الا الله · وتنطبق الصفة الغيبية على هذا المبدأ من ناحيتين : ففي المرتبة الاولى ، يؤكد أن الحقيقة مزدوجة ، فهي تتكون من ملكوت كائن فوق الوجود المادي ، وملكوت مدرك بالحواس ، وطبقا لمبدأ التوحيد ، تعرف هاتان الحقيقتان بالله وغير الله ، أو الخالق والمخلوقين · وفي المرتبة الثانية ، نجد أن مبدأ التوحيد يصور الله سبحانه (بمقتضى المعاني الفعلية ، والمادية والنهائية لذلك الاصطلاح) كالسبب الأول للخلق ، ومن ثم يعترف بأن الله هو مصدر الكون ، ومصممه ، وصانعه · ولكنه وفقا لهذا القول نجد أن الاسلام لم يعلمنا أي شيء جديد ، لأن تلك الحقائق قد عرفت بالفعل لليهود والمسيحيين ، بل وأيضا العرب قبل الاسلام ·

لكن ما يعد اسلاميا بصفة مميزة ‥ ومن ثم جديدا ‥ في التوحيد باعتباره مبدأ غيبيا هو الناحية السلبية لذلك الاصطلاح . فاعلانه أنه ليس ثمة كائن يمكن أن تعزى اليه الألوهية سوى الله يصطدم مع الافكار اليهودية ، والمسيحية ، وأفكار العرب قبل الاسلام ، التي تشرك كائنات أخرى مع الله ، وآلهة العرب التي كانت تتمثل في الحجارة والأخشاب ، والتي كان العابدون يوجهون اليها التسبيح والشكر ، ويسترضونها بالكهانة والتضحيات ، قد أنزلت الله الى مرتبة اعتبرته فيها مجرد اله يستكمل به العدد ·

وكما افترض الثالوث المسيحي وجود ثلاثة أشخاص في الألوهية كل منهم يعتبر بمثابة اله في حد ذاته ، وأكد أن الله قد ظهر في صورة البشر ، وهكذا قد انتهك ذلك الاعتقاد كلا من الوحدة الالهية ، وسمو الله فوق الوجود المادي ، أو أنه قد صور الله بطريقة تختلف تماما عن حقيقته · أما اليهودية فتعتبر الله في شكل متعدد وجمعي يتمثل في « الالوهيم » ، وتصف « الالوهيم » بأنه يتصل بالنساء من بنى البشر ، وهكذا فانها أيضا قد انتهكت كلا من مبدأ التوحيد وسمو الله فوق الوجود المادي ، وفوق ذلك ، فان الملوك اليهود واليهود بصفة عامة باطلاقهم اسم « عزرا » على « ابن » أو « أبناء » الله ، وباعتبارهم أن الله بمثابة أب اليهود ، الذين تختلف علاقاتهم معه تماما عن علاقات أي من المخلوقات الأخرى ، بكل هذه الاعتبارات أوجدت اليهودية منزلة متوسطة لسمو الله فوق الوجود المادي في مقابلة اعتبار أن كل شيء يعد بطريقة متساوية من خلق الله ، وليس من ذريته · ويبدو أن هؤلاء الذين يصوغون الحقائق قد أرادوا أن يؤكدوا سمو الجنس اليهودي على جميع الأجناس الاخرى ، ولذلك ، فان الاسلام قد سعى من خلال مبدأ التوحيد أن يطهر الدين تماما من كل شك يتعلق بوحدة الله وسموه فوق الوجود المادي · وقد حقق هدفا مزدوجا بمقتضى ذلك هو الاعتراف بالله كالخالق الأوحد للكون ، والنظر الى جميع الناس بطريقة متساوية باعتبارهم من خليقة الله ، منهم يحظون بنفس الصفات الاساسية للانسان كما يحظون بنفس الوضع في الكون :

وتوجد ناحية أخرى للتوحيد بالاضافة الى الناحية الغيبية هي الناحية القيمية ، فعند تأكيدنا أنه لا اله الا الله نعني أن الله هو القيمة المفردة

والنهائية ، وأن كل شيء آخر يعتبر فقط أداة تتوقف قيمتها على الله ، ويقاس بتحقيقها الخير الالهي النهائي ، ونعني أن الله هو الغاية النهائية لجميع المطالب ، وأن كل ما هو موجود في الكون يجب أن يماثل نفسه مع ارادة الله · وبمقتضى هذا الرأي ، فان الانسان يعد بمثابة العبد الذي يجب أن يكرس كل أعماله وقدراته لخدمة الله ، أو تحقيق الارادة الالهية ، أي تحقيق القيم السائدة على مدى الزمان – والمكان · وتوجد حقيقتان أخريان متضمنتان في ذلك تتعلقان بالوعي الأخلاقي وهما : أن الانسان يعتبر ذا فعالية ، وأن الخليقة تعد شيئا طيعا · فانه كما أكد القرآن ، ليس ثمة واجب الا وأوجدت « المقدرة » على أدائه وذلك فيما يتعلق بكل من الفاعل باعتباره وكيلا يدين بالأخلاق والمفعول به الذي يتمثل في كل شيء مدرك بالحواس يمكن معالجته (أي الخليقة) ، فمقدرة الشيء القابل للمعالجة على استقبال الأعمال الفعالة للانسان ومعاناة التحول هو ما يعنيه القرآن بفكرة التسخير ، وتأكيده أن الله قد أخضع كل شيء في الكون للانسان سواء على الأرض أو في السماء · وفيما يتعلق بمقدرة الفاعل على القيام بالعمل ، فيجب أن نضع في أذهاننا أن « الفعل الأخلاقي » لا يعني تقديم سلسلة جديدة من الأشياء السببية المترابطة ، فان ذلك يعد عملا حقيقيا من أعمال الخلق التي تقتصر على الله · أما « الفعل الأخلاقي » فيعني تحويل سلسلة الأشياء السببية المترابطة الى مسار يختلف عن مسارها لو لم يتم حدوث الفعل الأخلاقي ، فالمقدرة على اقامة الفعل الذي تتطلبه الأخلاق ليست بأكثر من ذلك ، أي تحويل واعادة توجيه سلسلة الأشياء السببية المترابطة الموجودة بالفعل في الكون الى غايات أخرى ·

والناحية القيمية للتوحيد مثلها مثل الناحية الغيبية تقيم العلاقة بين الله وخليقته ، ولكننا نجد أنه في الناحية الغيبية تكمن كل المبادرة والعمل في الخالق ، أما الخليقة فتعد سلبية ، لانها تتأثر فقط بفعل الخلق الالهي والامداد بأسباب الحياة الذي يظل فيه الخالق حرا ومستقلا تماما · أما في الناحية القيمية ، فان المبادرة والفعل تكمن في الانسان ، ومن خلال الأفعال الانسانية يتم تحقيق شيء من الله · ومع ذلك ، فان التوحيد يؤكد أن ما يتم التوصل اليه من خلال الفعل الأخلاقي الذي يقوم به الانسان يمثل الارادة

الالهية التي لا تتأثر بما تم التوصل اليه ، اذ الميزة الخاصة بالبداهة القيمية هي أنها تستدعي تحقيق ذاتها دون أن تعاني تلك الذات من أي تغيير • ولذلك ، فان الاسلام يعترف بالعلاقة التي تقصر وجود الله على الادراك الحسي أو التصوري ، وبمقتضى ذلك ، فانه يميز بين ذات الله ، أي سموه الأبدي عن المعرفة الانسانية ، وبين ارادة الله التي تعد حقيقة قابلة للادراك • وطبقا لغرضنا هنا ، بالمقارنة مع الجوهر الالهي الغير قابل للادراك ، نجد أن أمر الله ، وارادته ، وأفعاله ، وسنته تعد عبارات يمكن ان تتبادل فيما بينها ، ولو أننا افترضنا وجود اختلاف فيما بينها بالنسبة للمعاني الاضافية التي توحي بها ، فيجب أن ندرك أنها جميعها تتماثل في دلالتها ، أي في وجود الكائن الالهي القابل للادراك ، والذي نستطيع أن نطلق عليه « ما يعرف عن الله » • ونستطيع أن نقول بصفة عامة أن ارادة الله تعتبر ذات طبيعة قابلة للادراك ، وتعتبر هدف العلوم الطبيعية ، وتعد قيمة في الأمور الانسانية ، وهي هدف علم الأخلاق ، كما انها هدف لعلوم الشريعة ، وتعتبر أيضا بمثابة وحي في الدين •

وبالرغم من جميع تلك التمييزات على المستوى القيمي ، فقد نقتنع بالقول أن الله قد كان دائما موضعا للحب والعبادة ، وقد كانت ارادته على مدى قرون عديدة موضع اخلاص واهتمام الجنس البشري • وقد تم تلقي أوامره ، وتم فهمها واطاعتها • لكن ما هو اذن الشيىء الذي يميز الممارسة الاسلامية على المستوى القيمي

ان التوحيد بشهادته المختصرة ، لا اله الا الله يعبر عن ثلاثة معان جديدة على المستوى القيمي : المعنى الأول أن الخليقة هي الشيء المادي الذي يجب أن يتحقق فيه الكمال المتمثل في الارادة الالهية • ولذلك ، فان كل عنصر من عناصر الخليقة يتسم بالصلاح ، وان الكون لم يخلق على أفضل صورة فحسب ، بل انه خال من النقائص ويتسم بالكمال • وفي الحقيقة ، فان الكون الذي قدمت اليه القيم عن طريق الانسان من خلال رؤيته الأخلاقية وأفعاله الأخلاقية يعد هو ذاته الغرض الالهي من الخليقة • ونتيجة لذلك ، فان التمتع بقيمه الجوهرية أو النفعية لا يعتبر ذنبا ، فالحياة التي تتمثل فيها جميع القيم تعتبر أثرا من آثار الله ، ويتوقف الاحتفاظ بها وتدعيمها

على أفعال الانسان المتمثلة في التسبيح لله وعبادته ، وتغرس القيم الكونية السامية في كل فرد باعتبارها أداة للتوصل الى الحقيقة المطلقة ، وعلى عكس ذلك ، نجد أن المسيحية ، قد انتقصت من قدر الحياة الدنيا بتصويرها اياها بأنها تتكون من مجرد « كائنات حية » ، وأن البشرية تعد « مجموعة هائلة من الآثام » وأنه لن يأتي أبدا الزمان ـ والمكان عندما نتوصل للحقيقة المطلقة ·

أما المعنى الثاني ، فهو أن الانسان لا يقع في مأزق الا ويستطيع أن يخرج نفسه منه · فاعتبارات مثل كون طريق الانسان مليىء بالعقبات ، وأن الانسان يميل الى الانقياد التام لأنانيته ، أو أن يتخذ أسهل الطرق التي تؤدي الى تحقيق المتعة والشعور بالنشاط والخفة ، تعد جميعها حقائق ، ولكنها ليست بأكثر واقعية من نقائضها · ولذلك ، فان الانسان ليس بحاجة الى منقذ ، أو مسيح أو خلاص ، ولكنه في حاجة الى أن يكرس نفسه لأداء واجبه في الحياة ، وأن يقيس كفاءته بصورة مباشرة بمقدار منجزاته · ولذلك ، فان الاسلام ، باختلافه عن المسيحية ، قد علمنا أن الروحية أي اتباع الارادة الالهية ـ دون تغيير التوازن الوجودي للخليقة ، ودون تحويل مسار الخيوط السببية للطبيعة على كل من مستوى الزمان ـ والمكان ، أي باختصار ، دون السياسة والاقتصاد يعتبر تظاهرا زائفا وغير ذي جدوى ـ انه يدعو الناس للسعادة العظيمة بدلا من الخلاص ، ويعدهم بالأجر في الحياة الدنيا والآخرة بما يتناسب مع أعمالهم ·

أما المعنى الثالث الجديد للتوحيد على المستوى القيمي فهو أنه نظرا لأن الخير الذي يجب تحقيقه يتمثل في الارادة الالهية ، ونظرا لأن الارادة الالهية ، بمقتضى كونها ارادة الخالق ، تعتبر واحدة بالنسبة لجميع المخلوقات ويجب عليهم جميعا الالتزام بها ، فانه ليس من الممكن أن تكون هناك أي تفرقة بين الأماكن والأشخاص باعتبارهم القائمين بالفعل الأخلاقي · ولقد تم تأكيد ذلك المعنى بواسطة عيسى والأنبياء الآخرين ، ولكنه نادرا ما كان يتم اتباعه بواسطة المسيحيين ، ومن ثم وجب اعادة ذكر ذلك الأمر مرة أخرى لصالحهم ، ومن الناحية الأخرى ، نجد أن اليهودية قد أنكرت المبدأ باصرار وحثت على عكسه · أما فيما يتعلق بأنه ليس من الممكن أن تكون

ثمة تفرقة بين نقاط الزمان والمكان باعتبارهما محـــور العمـــل السياسي المتشعب ، وأنه لن تكون ثمة تفرقة بين الناس باعتبارهم القائمين بالأفعـــال الأخلاقية ، وكون الحياة الأخلاقية بالضرورة عالمية واجتماعية فـي نفس الوقت ، فان ذلك كان بمثابة اكتشاف جديد لم يعرف أويمارس قبل ظهـــور الحركة الاسلامية الى الوجود ·

ويبدو أن ذلك واقع في نطاق المنظور الخاص بتعاليم الأديان السامية · ونظرا لأن الاسلام يضع الأشياء في اطار منظور أوسع ، فانه يعد تقدمـــا مفاجئا أيقظ العالم من السبات الذي استحوذ عليه في انقسامه فيما بيـــن العقيدة الهندية والعقيدة الهلينية · لقد اعتقد الهنود ـ طبقا لديانتهم ـ أن العالم في حد ذاته يمثل الحقيقة المطلقة (البراهما) ، ولكنه لا يعد علـــى الشكل المثالي ، بل انه يتخذ لنفسه شكلا مميزا خاصا وملموسا قد أدانوه ، وهم قد اعتقدوا أن صياغة الروح وتقييدها فـــي صورة حسية أو ماديـــة (البراهما) تعد شيئا غير مستحب · ونتيجة لذلك ، اعتبروا الأمر الدينـــي الأخلاقي بمثابة فرار من ملكوت التشكيل المادي للأشياء (أي الخليقة) ، الذي أدانوه باعتباره شيئا بغيضا ، الى ملكوت الحقيقة المطلقة (أي السعادة القصوى البرهمية) التـــي مجدوهـــا باعتبارهـــا النعيم والخيـــر الاسمـــي· وبمقتضى ذلك الرأي ، فان مسيرة الكون ، أي الانجاب ، والتعبئة لانتـــاج الطعام ، والتعليم ، وتحويل الحياة الى جنة ، وصياغة التاريخ ، تعد بـــلا ريب رذائل لأنها تنشر ، وتضاعف وتطيل من تلك الحالة المتمثلة في صياغة الأشياء في الصورة المادية · وفي الواقع ، فان المذهب الأخلاقي الوحيـــد الذي ينسجم مع هذا الرأي يعد فرديا ومنكرا للحياة · لقـــد ظلت كل مـــن اليانية والبوذية الثرافادية صادقة الولاء لتلك الرؤيا الأساسية الخاصـــة بالمعاهدات الفيداوية التـــي تعالج مشاكل فلسفية واسعة ·· ولقـــد قبلت الهندوسية تلك الرؤيا لصالح النخبة المختارة من القوم واقترحت نظرة دينية شعبية تتطلع بمقتضاها الطوائف الاجتماعية المغلقة الى الآخرة فقط للخلاص من آلامها ، في حين تستمر في العمل في مناصبها المعينة فـــي الحياة دون الشعور بأي نوع من المتعة أو الرضاء عن النفس الذي يتحقق عـــن طريق اشعار الانسان بأنه يفي بالغرض من وجوده في الحياة · وبطريقة مماثلة ،

فان البوذية المهانية قد احتفظت بتلك الرؤيا كخلفية لها وصاغت عقيدتها من المذهب الأخلاقي الصيني الفطري للعالم ، وعينت بعض الأسلاف من البشر ورفعتهم الى مصاف الآلهة ليكونوا بمثابة المخلصين الذين ينقذون البشرية من أحزان الحياة ·

وبادماج بعض عناصر الديانات المصرية واليونانية والمثرائية والأديان الشرقية الغامضة ، فان الهلينية قد استطاعت أن تغمر الحركة السامية لعيسى التي كانت تسعى الى اصلاح التقيد المفرط بالقانون الخاص باليهودية وعقيدتها التي تؤكد سمو الجنس اليهودي ، وقد تم الاحتفاظ بالعنصر اليوناني ـ المصري الذي ماثل بين الله والكون مع تعديله وتخفيفه ، وذلك بصياغته في مذهب التجسد الذي يظهر الله بمقتضاه في صورة البشر حتى يمكن الناس من أن يضفوا عليه صفة الألوهية · ولقد اجتمعت أشياء تتمثل في نبذ المضطهدين في الامبراطورية ، والمقت الروحي الشديد للمادة والكون ، وأمل المثرائية واليهودية في الخلاص ، لتمنح المسيحية حكمها التاريخي على الكون الذي بمقتضاه وسمته بالانحلال الخلقي ، ووسمت الحياة بأنها رزيلة مؤقتة ، والدولة والمجتمع بأنهما من عمل الشيطان ، والحياة الأخلاقية بأنها فردانية وزاهدة ·

لقد كان الشيىء الذي أنجزه الاسلام هو تقديم الايضاح المجدد للرؤية ، فقد استبعد اعتقادي الهند ومصر اللذين ماثلا بين الحقيقة المطلقة والكون ، والخالق والخليقة ، سواء كان ذلك لصالح الخليقة كما كان الأمر في مصر واليونان القديمة ، أو لصالح « الخالق » كما كان في الهند · ولقد أعاد الاسلام تأكيد الرؤيا القديمة الخاصة بالعراق والتي تؤكد التباين التام بين الخالق والخليقة ، وتؤكد أن الانسان عبد في ملكوت الله · وبالاستفادة من التاريخ ، فان اعادة التأكيد تلك التي قام بها الاسلام كانت بمثابة تبلور لتلك الحكمة القديمة الخاصة بالعراق ·

(ب) المتضمنات التاريخية للتوحيد :

يلزم التوحيد الانسان باتباع الفضيلة في أفعاله ، أي اتباع المبادىء

الأخلاقية التي تقر أن قيمة الانسان أو عدم قيمته تقاس بدرجة النجاح التي يحرزها في تغييره لمسار العمليات على مدى الزمان ـ والمكان ، أو بمقدار التغيير الذي يحدثه في نفسه وفيما حوله · ان التوحيد لا ينكر المبادىء الأخلاقية المتضمنة في النية حيثما يتم تطبيق نفس الأسلوب القياسي طبقا لدرجة اعتناق الشخص للقيم التي تؤثر فقط على حالته من الشعور · ومن ثم فان الاثنين لا يتعارضان ، بل ان الاسلام في الحقيقة يتطلب الايفاء بالالتزامات الأخلاقية المتعلقة بالنية كخطوة تمهيدية للبدء في الايفاء بالالتزامات الأخلاقية المتعلقة بالفعل · والاسلام بمقتضى ذلك قد حال دون أن تصبح مبادئه الأخلاقية شيئا يتوقف على النتائج أو المنفعة المترتبة عليه مهما كانت الأهمية التي تضفى على تلك النتائج أو المنفعة ·

ومما ينتظر من المسلم الملتزم أن يعمل على تحويل مسيرة الزمان ـ والمكان ، وتغيير الكون · وبمقتضى خضوعه لله فقط كسيد له ، وتكريس نفسه ، وحياته ، وجميع نشاطه لخدمته ، وبادراكه أن مشيئة الله يجب تحقيقها على مدى الزمان والمكان ، فانه يجب أن يأخذ على عاتقه مواجهة الصعوبات ، وأن يفتح عينيه على واقع الأمر والتاريخ ، ويحاول أن يحقق ذلك التغيير المرغوب فيه · وهو لا يستطيع أن يحيا حياة رهبانية ، أو يعيش في عزلة ، الا اذا كان ذلك بهدف التدريب على ضبط النفس والسيطرة عليها · وحتى اذا كان ذلك هو الهدف ، فان تلك الممارسة لو لم تؤد الى تحقيق قدر من النجاح بالنسبة لتحويل الزمان ـ والمكان ، فانها سوف تكون انانية لا أخلاقية ، لأن الهدف في تلك الحالة سوف يتركز حول تشكيل الذات وكأن ذلك غاية في ذاته ، بدلا من الاعداد لتغيير العالم بما يتماثل مع النمط الالهي ·

وقد برر القرآن وجود الكون بافاضة ، ووصفه باعتباره ذلك الشيء الذي يباشر فيه الانسان مهمته الكونية ، كما أكد القرآن أن الكون هو المملكة التي يجب أن يتحقق فيها الكمال بواسطة الانسان ، فان الفضيلة تتمثل في العمل ، ويتم الحصول على السعادة القصوى أو الفلاح من خلال العمل · وبمقتضى ذلك ، يشرح القرآن أن الغرض من الكون ككل ليس من الممكن أن يكون له معنى آخر سوى تغيير الخليقة المتمثلة في الرجل ،

والمرأة ، والأرض ، والمدن والبلدان · وبالنسبة للسؤال من هو الذي ينكر الدين ؟ (ونجد ان الدين يعد تعبيرا أكثر شمولا من الله) يجيب القرآن أنه : فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » · ومن الواضح أن تزويد الكون ، أي ذلك الزمان والمكان ، بالقيم ، حتى القيم المادية مثل الطعام ، ليس ذا أهمية للدين فقط ، ولكنه ذو أهمية بالنسبة لجميع الامور المتعلقة بالدين ، ولهذا فان الايمان بالأخرويات (كالبعث والحساب) في الاسلام يختلف بصفة جذرية عنه في اليهودية والمسيحية ، ففي اليهودية نجد أن « ملكوت الله » يعد بديلا لوضع اليهود في المنفى ، اما ملكوت داود « فكان بمثابة شيىء يعرض بواسطة هؤلاء الذين افتقدوا ملكوت الله والذين يجدون أنفسهم في أدنى مستويات الأسر والانحطاط · وبالنسبة للمسيحية ، فان دفعتها الرئيسية كانت تتمثل في مصارعة التمركز حول العرق ، والميل نحو الأشياء المادية والمظاهر الخارجية الخاص باليهود · ومن ثم كان من الضروري للمسيحية تطهير ملكوت داود من العوامل الدنيوية وفصله بشكل تام عن الزمان والمكان · وقد أدى الاتجاه الذي كان سائدا بالفعل في اليهودية والمسيحية الى تطوير ذلك الأمر بشكل أكبر باضفاء الصفة العالمية عليه باعتباره خلاصا للبشرية وتطهيرا لها من الروابط الدنيوية · وفي كلتا الحالتين ، فان « ملكوت الله » قد أصبح بمثابة « عالم آخر » وأصبحت الحياة الدنيا بمثابة مسرح مؤقت لقيصر ، والشيطان، والمادة في عالم يسوده الفساد وينتشر فيه اللصوص وأعمال السرقة ·

والايمان بالاخرويات (كالبعث والحساب) في الاسلام ليس شيئا تمت صياغته على مدى التاريخ · ولكنه مبين في القرآن بشكل واضح تماما · وهو لا يدين بأي علاقة بالنسبة للأوضاع الراهنة الخاصة بمعتنقيه كما هو الحال في اليهودية والمسيحية ، فان ذلك الايمان يعد بمثابة ذروة الحياة الأخلاقية على الأرض ، تلك الذروة التي تتجسد في الثواب والعقاب · والحياة في شكلها المألوف لدينا لن تتكرر مرة أخرى ، تحت ظروف أخرى وبأقدار مختلفة للبشر تغاير معاناتهم الحالية ، وهذه الحياة هي الملكوت الوحيد المفرد ، ومسيرة الزمان ـ والمكان هذه هي المسيرة الوحيدة ، والانسان فقط هو الذي يستطيع اتخاذ الأمور التي تجعل الكون في الصورة

التي يجب أن يكون عليها · وحالما تنتهي الحياة ، يمكن حينئذ فقط اجراء الأحكام واقامتها وتطبيق الثواب والعقاب ، ويتم ذلك بكيفية تختلف تماما عن المسار المألوف لدينا للأشياء في الزمان ــ والمكان ، فذلك سوف يكون أمرا فوق الوجود المادي ، يفوق المعرفة الانسانية تماما ، فيما عدا وصفه المجازي الذي ينقل الينا عن طريق الوحي ·

وكنتيجة لذلك ، تكتسب أمور الحياة في الاسلام أهمية خطيرة للغاية · والتاريخ يعد حاسما بالنسبة للمسلم كما هو حاسم بالنسبة للشيوعي ، فيما عدا أن المسلم يعرف نفسه ، ويعرف أنه لا يمثل الحقيقة المطلقة ، ولكنه هو صانع التاريخ ، فالمسلم يعتقد عن ثقة أن ما يقرره الله ليكون بمثابة التاريخ في النهاية هو النتيجة المباشرة لسلوكه على مدى التاريخ ، على كل من المستوى الشخصي والفردي ، وأيضا على المستوى الاشتراكي او الاجتماعي · وفي حين أن الشيوعي يعتبر التاريخ في حد ذاته الحقيقة المطلقة ، ومن ثم يعتبره ضروريا ، وأن المسيحي يعتبر التاريخ غير ملائم ، وغير ضروري ، بل وبغيضا ، فان المسلم يعتقد أن التاريخ يعد المسرح والمادة ، والاختبار ، والجوهر ، والغرض من الخليقة ذاتها · ويتبع ذلك أن الاسلام يعرف المسلم بأنه الشخص « الجاد » الذي يعتبر في الوجود والخليقة ، ويعلن بقوة « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » ، ويحيا الحياة الشاقة التي تتمثل في التدخل لأقصى درجة ممكنة في عمليات الطبيعة والتاريخ ، وهو الذي يتقبل اصدار الحكم عليه بمقتضى انجازاته أو فشله في التأثير على التاريخ · وهكذا ، فان التوحيد يمكن المسلم من أن ينظر الى نفسه باعتباره محور التاريخ ، لأنه هو خليفة الله الوحيد الذي يستطيع تنفيذ ارادة الله على مدى التاريخ ·

تلك هي النظرة الوحيدة القادرة على شرح سلوك النبي والصحابه والأجيال المبكرة من المسلمين ، فالرؤيا التي تمثلت لمحمد في غار حراء ، والأمور الالهية التي تمثلت له من خلال جبريل ، قد حثته على التوجه الى مكة ليقوم بالعمل ويحول مسار الانسانية والتاريخ · ولكن تلك الرؤيا لم تحتجزه في حالة من المعاناة ، أو تحثه على الرغبة أو السعي لتكرارها ، ولم تثر مشاعر الحسد في أصحابه لعدم مرورهم بنفس التجربة ، ولكنها

قد أمرت محمدا بوضوح أن يقوم بتغيير اتجاه الحياة الواقعية المتمثلة في الزمان ـ والمكان الى ما يتوافق مع الشكل الالهي · لعل ذلك هو التمييز النهائي الذي يميز تجربة محمد عن تجربة عيسى في المسيحية ، أي أنه في حين اعادتها التأكيد على القيم الشخصية الخاصة بعيسى ، فانها أضافت اليها ـ كشرط أساسي ـ الرؤيا القائلة بأن أشياء مثل التطلع الى الله ، وحب الله ، والاستغراق فيه ، والعيش به ، ليست بذات قيمة لو لم تؤد الى الارتفاع بهذا الكون ، وهذا التاريخ ، وهذه المادة بطريقة فعالة حتى يتم تحقيق القيم التي تمثل ارادة الله · لقد كانت هذه الايجابية في التجربة الدينية هي التي جعلت النبي محمد يجيب مناشدة له بالتخلي عن تغيير الوضع الراهن بواسطة الاسلام بالكلمات التالية :

« لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته أبدا » ·

وبدلا من أن يستسلم لأعدائه بطريقة سلبية ويجعل من نفسه كبش الفداء ، فان محمدا قد فاقهم حيلة ، وهاجر الى المدينة وكون في الأسبوع الأول لهجرته أول دولة اسلامية ، ووضع دستورها · ان نبوة محمد لم تتكون من أكثر من تلقي الرسالة ونقلها ، ولكن الرسالة كانت ذات مضمون ، وقد كان محمد أول من التزم بما أمرت به ·· لقد أملي عليه ذلك المضمون أن يتدخل في عمليات الطبيعة ، وفي أسلوب حياة قومه وحياة جميع الناس ، ويحقق التحول المرغوب فيه · وبعد مضي تلك المسيرة اللامعة للقيادة في جميع جبهات الحياة ·· التي ابتدأت من أكثر الأوجه شخصية ، الى الأوجه العسكرية ، والسياسية والقضائية ـ والتي تم توحيد بلاد العرب في خلالها وتعبئتها لتقوم بأخطر تدخل في تاريخ العالم ، توفى محمد بعد أن ترك جيشا معبأ يقف على أهبة الاستعداد لنشر الاسلام في العالم خارج بلاد العرب ·

ولقد قام المسلمون الأوائل ـ الذين استحوزت عليهم رؤيا النبي وحماسه الشخصى ـ باقتحام ميدان التاريخ ـ دون توان ـ لاحداث التغيير الذاتي في الأفراد الذين ينتمون لجميع الأجناس والحضارات ، واحداث التغيير في أنماط حياتهم اليومية ، وفي حضارات المجتمعات وأيضا في

الخرائط ، والخطوط الكفافية ، والصور الظلية للقرى والمدن وحتى الامبراطوريات · وكلمة عقبة بن نافع الشهيرة على شاطىء الأطلنطي في المغرب ، حينما قال (لو أنني أعرف أنه توجد أرض فيما وراء المحيط لعبرته فوق ظهر جوادي !) نموذج للروح السائدة في الجيل الجديد الذي نشأ على تعاليم الاسلام ، فالمهمة التي اتخذها المسلمون على عاتقهم كانت تعد عالمية ، وقد كانوا دائما يودون التأكد من اتمامها على أكمل وجه · وتعتبر تلك المهمة ذات طبيعة أخلاقية ودينية ، لأن المسلم لم يكن يعني بالمنصب السياسي أو الكسب الاقتصادي ، وانما كل ما كان يعنيه كان يتمثل في اقامة حياة يسود فيها حكم النظام العالمي الجديد ، تلك الحياة التي لا يجري فيها أي ظلم الا ولقي جزاءه ، وتسود فيها الحرية بالنسبة لنقل الأفكار ويكون لدى الناس حرية الاقناع والاقتناع ، ويستطيع الاسلام أن يدعو فيها الناس الى التوحيد بالله ، والى الايمان بالحقيقة والقيم · ولو لم يوجد التاريخ ذاته من قبل ويحث المسلمين بقوة على اعادة تشكيله ، لكان المسلم قد صنع ذلك التاريخ ، والمثل لذلك هو حي بن يقظان ، الذي بعد أن أدرك وجود الله والارادة الالهية ، قام بنحت طوق من الأشجار ليعبر به البحار ، وانهي عزلته الفردية وتقدم لاستكشاف المجتمع والعالم والمساهمة في صنع التاريخ ·

(ج) متضمنات التوحيد بالنسبة للنظرية الاجتماعية (الأمة) :

١ ـ المتضمنات النظرية :

تحقيق الارادة الالهية ، أو تطبيق القيم ، يتطلب وجود الأمة ، أي الهيئة المكونة من اناس متحدين سويا ، يكون باعثهم للعمل هو الأرادة الالهية ، وتملى تلك الحاجة على الأمة بواسطة الاعتبارات التالية التي تنبع جميعها من طبيعة التجربة الدينية في الاسلام ·

(أ) الطبيعة العامة للحياة الاسلامية :

عندما نتحدث عن المبادىء الأخلاقية المتعلقة بالنية ، وحينما تعد القيمة

الأخلاقية بمثابة دالة الالتزام الشخصي في لحظة معينة ، ومن ثم تعد بمثابة دالة حالة الشعور بالنسبة للشخص ، فانه ليس من الممكن أن يكون هناك أي حكم على الفرد سوى ضميره ·· والله · ونظرا لأن تلك المسألة تعد شخصية وذاتية تماما ، وليس ثمة شخص يستطيع أن يتعرف على نقاء القلب ودوافعه وأعماله الذاتية سوى الشخص ذاته · وذلك هو السبب في أن أي نظام اجتماعي يتعلق بالمبادىء الأخلاقية المتعلقة بالنية يفترض قيامه على أساس الشرف حيث يكون الضمير الشخصي دائما القاضي ، وان الدور الوحيد الذي يستطيع الأشخاص الآخرون القيام به في تلك العملية هو دور الناصح · وحتى عندما يعلن الضمير أن الشخص مذنب ويصدر الحكم ضده بالتكفير أو التعويض ، فانه يقوم أيضا بالعمل بدور القاضي الوحيد الذي يراقب تنفيذ الحكم · ونستطيع القول أن التغيير المتطلب تحقيقه على أي مستوى يتمثل في التغيير في الضمير ويتم من خلال الضمير ذاته ، ومن الواضح أننا لسنا في حاجة لشيىء سوى الضمير لتقرير الذنب وتقرير الاصلاح أيضا · أما فيما يتعلق بالوجود الفعلي للجيران أو « الأشخاص الآخرين » ، فليس ثمة ضرورة له ، تلك يجب أن تكون هي « الفكرة » بالنسبة للجيران والأشخاص الآخرين ، نظرا لأن مجرد وجود تلك الفكرة (حتى اذا كانت مجرد هذيان) يكفي لأن يجعل الشخص يضفي الصفة الأخلاقية على ارادته ، أو أفعاله ، أو نيته · ولكن الأمر يختلف بالنسبة للمبادىء الأخلاقية التي تتعلق بالفعل ، حينما تكون الاضطرابات والتأثيرات القابلة للقياس التي تم احداثها في الزمان والمكان هي التي تقرر قيمة أو عدم قيمة الفعل · وفي هذا الصدد ، لا يكون تطبيق القانون ممكنا فحسب ، بل يكون من الضروري تطبيقه هو وفروعه المتمثلة في البحث ، والتشريع ، والاعلان ، والنظام القضائي الهرمي التسلسل والأداة التنفيذية ، تلك التنظيمات والأدوات تعد جزءا مكونا من المجتمع أو الأمة · ولكن ذلك لا يضعف بأي حال من مهمة الضمير الذي يستمر في العمل في اطار المبادىء الأخلاقية المتعلقة بالفعل كما يقوم بالعمل في اطار المبادىء الأخلاقية المتعلقة بالنية · وبالاضافة الى ذلك ، فان الاساليب الجديدة في المجتمع (أي التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية) يجب أن تدخل في الصورة وتنظم

:حياة الناس ، وليس نواياهم ، وتنظم أسلوبهم في تغيير سلسلة الأشيـــاء السببية المترابطة في الكون ، ذلك التغيير الذي يتمثل في تحويلها تجـــاه توازن طبيعي مختلف سواء كان على وجه أفضل أو أسوأ · ولذلك ، نجد أن الاسلام يضع القانون الذي يعلو على نطاق الضمير ، ويؤسس المحاكـم والدولة التي تعلو على نطاق الكنيسة ورجال الدين باعتبارهم معلمين ونماذج يحتذي حذوها ·

(ب) الحاجة للوجود الفعلي والثابت لبنيان اجتماعي:

يلزم من فكرة الاسلام عن الأوامر الأخلاقية الدينية بأنها تحول فـي الزمان والمكان ، وأيضا من فكرته عـــن طبيعة الأمانة بأنها بمثابة قيمـــة أخلاقية ، يلزم من هذا استحالة وجود الاسلام دون وجود البشرية والحياة ، فمن الواضح أنه لا يمكن احداث تغيير في الزمان لو لم يوجد ترابط بيـن الزمان والمكان،وتنطبق نفس العلاقة أيضا بالنسبة للبشرية، فلو لم يحصل الناس على حق الانتفاع بالأرض لم يكن ثمة معنى لاحداث التغيير في حالتها ، واذا لم يقم الناس باستهلاك ثمرات التغيير ، فانه بالطبع لن يكون مـــن الممكن احداث ذلك التغيير سوى مرة واحدة ، وليس على مدى الزمان طبقا لما يتطلبه الاسلام · ومن ثم ، فان كدح البشرية ، ومعاناتها ، واستمتاعها بثمرات جهدها يعد شيئا ضـــروريا ، ولكنه ليس من الممكن استمـــراره أو بقاؤه بدون وجود النظام الاجتماعي ·

وفيما يتعلق بالجانب الأخلاقي من الارادة الالهية ، فان تحقيقه يعـــد ممكنا فقط في اطار العلاقات الانسانية التي تسود بين الأفراد وفقا للنظـــام الاجتماعي ، ويعد جوهر القيمة الأخلاقية في حد ذاته البنيان للعلاقـــات الانسانية والمعاملات الانسانية · فمثلا ، عندما لا يكون ثمة بيع أو شـــراء أو تبادل للسلع والخدمات ، فلن يكون ثمة مجال لممارسة العـدل والأمانـة بحـــكم طبيعة الحـال وعندمـا ينعـدم عنصر النـــدرة التـي تتمثـل في اغناء بعض الناس ومعاناة البعض الآخر ، وعندما لا يكون ثمة شخص فـي حالة معاناة أو في حاجة الى العون ، فلن يكون ثمة مجال لأي ممارســة

خيرية · حينئذ ، نستطيع أن نقول ان المجتمع في شكله لدينا يعد شرطا ضروريا للأخلاق ، وهو لا يعتبر بأكثر أو أقل من اطار يتضمن مجموعة من الأفراد الأحرار الذين يتعاملون سويا ويؤثرون بصفة متبادلة على الكون من خلال تأثير كل منهم على شخص الآخر ·

ويعد المجتمع شرطا للفلاح الديني ، أو السعادة العظمى ، وعلى عكس ذلك ، فانه ليس من الممكن أن يوجد أي مجتمع أو أن يستمر على المدى الطويل بدون الأخلاق · والا ، فانه لن يكون ثمة خلاص مما أطلق عليه **توماس هوبز** bellum omnium contra omens فانه حتى عصابات اللصوص يجب أن تضع نوعا من النظام الأخلاقي لأعضائها لو أنها كانت راغبة في استمرارها في البقاء كعصابة لصوص ·

(ج – وثاقة صلة علم القيم) : – ان الايفاء بالارادة الالهية يتطلب التعرف على تلك الارادة · وتختلف تلك المعرفة في المذهب الفردي عنها في المذهب الاجتماعي ، لأن آراء كل من المذهبين تختلف فيما يتعلق بالارادة الالهية ، أولا ، ان السعي الاجتماعي وراء القيم يؤدي الى نتائج تختلف من ناحية الكيف عن السعي الفردي · فان ترتيب القيم طبقا لأهميتها يختلف في المذهب الاجتماعي الذي يتم النظر فيه الى كل شيء في ضوء مصلحة المجتمع ككل· وبمقتضى تلك النظرة ، تنشأ علاقات قيمية جديدة بين القيم المختلفة ، وقد يكون من الممكن التوصل الى حلول بالنسبة للقوانين القديمة المتناقضة واكتشاف قوانين جديدة ، وفي الحقيقة ، فانه قد يكون من الممكن اقرار قيم جديدة غير خاضعة لاعتراض الضمير على المستوى الشخصي · ثانيا ، في حين أن الصورة التي يجب أن تكون عليها الاشياء تتوقف على القيم وتعد في الحقيقة صياغة لها ؛ فان الصورة التي يجب أن تكون عليها القيم ترتبط بشكل لا ينفصم مع الأشياء المادية الواقعية الموجودة التي يكون من المفترض أن تلك القيم سوف تقوم باحداث التغيير بها · ان الرغبة الأولى لعلم الأخلاق التي تتمثل في تحقيق القيم على أكمل صورة تكون مستحيلة لو لم ننظر بعين الاعتبار الى جميع الأشياء الممكنة التي يجب تحقيقها من خلال تلك القيم · والأشياء الواجب فعلها تختلف أساسا وفقا للمكان الذي يتم تحقيقها به · والمذهب الاجتماعي لا يعني مجرد تحقيق زيادة كمية · ثالثا ، نظرا لأن القيم تعد

بمثابة شيء انتقالي ، أي أنها تحرك أشخاصا آخرين الى جانب هؤلاء الذين تحثهم على البدء بالعمل في حالة كون تحقيق تلك القيم ذا صفة عمومية ، فان خسارة أكيدة تكون لقيم العالم بأجمعها لو أنه تم تقييد صفتها الانتقالية بأي حال · فان الادراك الحسي للجماعة وتحقيقها لما تهدف اليه قد يؤدي الى اكتشاف « مجال من العلة والمعلول » الذي لا يكون في امكانية أي شخص أن يسبر غوره بداهة · رابعا ، توجد لدينا الفائدة الجدلية الوجودية للرؤية والانجاز التي تسمو فوق الوجود المادي لأي شيء نظري نستطيع أن نتناوله بالمناقشة ·

٢ ـ المتضمنات العملية :

هذه المجموعة الأخيرة من الاعتبارات تجعل من الضروري أن يكون تحقيق الارادة الالهية على المستوى الاجتماعي · وبالاضافة الى الحقيقتين البديهيتين الأوليين اللتين تتعلقان بالمباديء الأخلاقية بالنسبة للأفعال،والوجود الفعلي لبنيان اجتماعي مستمر ، فان تلك الاعتبارات باعتبارها جزءا مكونا من الممارسة الدينية الاسلامية تتضمن ثلاثة مبادىء تؤثر على الممارسة ، والنشاط في المجتمع الاسلامي · وتلك المباديء هي العالمية ، والمجموعية والحرية ·

١ ـ ان مماثلة الارادة الالهية بالقيم تحرر القيم من جميع الهيئات الخاصة التي يصطلح عادة على أنها المصادر المعيارية للقيم ، مثل القبيلة ، أو الجنس ، أو الأرض أو الحضارة · ونظرا لأن الله بمفرده هو الله ، وكل كائن آخر يعد واحدا من خلقه ، وأن كلا من نوعى الحقيقة يتصف بالشمول بشكل تبادلي ، فان صفة الخليقة تنطبق علىجميع المخلوقات بطريقة متساوية· ويعني ذلك أن وحدة الله ، التي تمثل وحدة الحقيقة ووحدة القيم تتضمن تماثل القيم بالنسبة للجميع ، ومن ثم تتضمن استقلال تلك القيم عن الجميع ،وتتضمن أيضا أن الالتزام الأخلاقي والنداء الأخلاقي الباطني الذي يعزى الى المخلوق بصفته مخلوقا ينطبق بطريقة متساوية على الجميع · وكما تنطبق أساليب الله التي تتمثل في تنظيم الكون على جميع المخلوقات ، فان ارادته أيضا تنطبق على البشر أجمعين بطريقة متساوية · وفيما يتعلق بالتكريس الأخلاقي،

فان أي تمييز بين الانسان وأخيه الانسان يعد تهديدا لوحدة القيم ، ومن ثم لوحدة الله · ولذلك ، فان القيم ، أو الأمر الأخلاقي ، يعد أمرا للجميع ، وليس من الممكن قصر الالتزام به ، أو ما يجب أن تكون عليه الأشياء وما يجب أن يتم فعله على طبقة من البشر خاصة ·

وينتج ذلك المبدأ الخاص بالمجتمع الاسلامي نتيجتين : أولا ، أن المجتمع الاسلامي ليس من الممكن أبدا أن يقصر نفسه على أعضاء أي قبيلة ، أو أمة ، أو جنس أو جماعة ، ولكنه بالطبع يستطيع ، بل في الحقيقة يجب أن يبتدىء من مكان ما وبشخص ما ، وهو يستطيع لفترة محدودة ، وفي مكان محدود أن يفرض أي قيود يرغب فيها وفقا للاعتبارات الاستراتيجية ، ولكن لا يستطيع أبدا أن يغلق أبوابه على المبادىء ولا يستطيع أن يهدأ أبدا الى أن يشتمل البشرية بأجمعها ·وانه ليخون علة وجوده اذا منع أي شخص في أي وقت من أن ينضم اليه ، فان حق الانسان في هذه العضوية يعد حقا طبيعيا يمنح اليه بمقتضى وجوده ذاته · ثانيا ، ان المجتمع الاسلامي يجب أن يمتد ليشمل البشرية وانه لا يستطيع أن يهدأ الى أن ينجح في تحقيق ذلك· وأدعاء المجتمع الاسلامية ، ومن ثم الشرعية تحت راية الاسلام ، ينشأ عن اذعانه الذي يتسم بالفعالية لدعوة الله ، وتلك الدعوة ليست مجرد دعوة للوجود أو الفناء والسعى وراء السعادة الشخصية ، أو لمجرد وجود عدد من الأشخاص المسلمين ، ولكنها دعوة لتغيير جميع البشر ، والزمان والمكان · والمجتمع الاسلامي يعد وسيلة وغاية ، فيعد الوسيلة عندما يمثل جزءا من العالم ويعد الغاية عندما يشمل العالم بأجمعه ·

ان النظريات النفعية عن المجتمع تسير بأسلوب يتعارض مع الدعوة الاسلامية لأنها تصور المجتمع أداة للبقاء المادي ، ووسيلة لتحقيق التخصص في العمل والرفاهة الكمالية · وبالرغم من أن تلك الأشياء تعد بالتأكيد عناصر في نمو المجتمع الاسلامي ، فان تفسير المجتمع في اطارها يعد ارتكابا لخطأ الانتقاص من قدر ذلك المجتمع · أما النظريات الأخرى التي لا تتطلب من المجتمع أن ينتشر على أساس الرغبة في قصره على « الصفوة المختارة » ، او الجنس ، أو اللغة والحضارة ، تعد نسبية وهي تتعارض مع الصفة العالمية كما تتعارض مع التوحيد ·

لقد تفهم المسلمون النتيجتين اللتين ذكرناهما فيما سبق على مدى التاريخ وقد أكدت الآية القرآنية التي تعلن أن جميع الناس ينحدرون من اصل واحد أنه قد تم تنظيم الناس في شعوب وقبائل حتى يتعاونوا سويا ويزيدوا من اخصاب الأرض ، ولقد كانت تلك الآية وغيرها من الآيات المماثلة دائما على كل لسان ، ولينطبق ذلك أيضا على خطبة النبي في حجة الوداع : « كلكم لآدم وآدم من تراب · لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ·»

والقبلية والقومية اللتان تتعارضان بالفعل مع المباديء المتضمنة في المجتمع الاسلامي تعتبران متماثلتين في أساسهما ، بالرغم من أن « القبلية » التي ينتمي اليها البعض قد تكون أصغر وأكثر تقيدا عن « الأمة » التي ينتمى اليها البعض الآخر · وكلاهما يدعى تماثل القيم بالنسبة للأعضاء في مجموعة معينة ، لأن كل مجموعة طبقا لرأيهم ، هي التي تضع تلك القيم التي تدين بها · ومن ثم ، فهي تعد مصدر تلك القيم وواضعتها · وذلك الرأي يخول بصفة مباشرة لكل مجموعة أن تضع المعايير والقيم الخاصة بها طبقا لمشيئتها ، أما عنصر « التجمع » فليس من الممكن الادعاء أنه يقتصر على أي مجموعة معينة ، ونظرا لأن التجمع هو المقياس النهائي ، فان أي عدد من الناس يشكلون أنفسهم في جماعة يستطيعون ادعاء نفس الحق · ولذلك ، فان النسبية تتضمن بالضرورة التعدد ، وتلك الفرضية السابقة تتضمن بالضرورة الاختلاف أو التشعب بدون تقديم أداة شاملة وفعالة بالنسبة للجماعات المتجادلة· وسوف يكون الصراع أمرا حتميا لو لم تتم تصفية الجدال عن طريق التشابه التصادفي ، أو التماثل في آراء المجموعتين ، أو عن طريق تسليم احدى المجموعتين الى الأخرى · ان الافتراض هنا هو أن كل مجموعة تمثل المصدر النهائي للقيم التي تدين بها ومن ثم ، فان أي معيار يكمن وراء نطاق خبرة أو معرفة المجموعة يعد غير شرعي ويؤدي الى المشاكل والخلافات بين الأطراف المتصارعة ، وعلى أساس ذلك الافتراض السابق فلن يكون ثمة حل للصراع · واذا ساد الاعتقاد بين أعضاء المجموعتين المتجادلتين أن الصراع بينهما قد وصل الى أقصاه ، فلن يكون ثمة مهرب من القتال الذي يترتب عنه هزيمة أو دمار أحد الطرفين على يد الآخر · ولكننا اذا أقررنا تلك النظرة السلبية للقيم فلن يكون ثمة أمن حتى بالنسبة للطرف المنتصر الذي هزم

معارضيه • وان مجرد تماسك المجموعة قد مكنها من عرض قضيتها والدفاع عنها ، ومن ثم فان أي عدد من الأفراد بداخل تلك المجموعة ذاتها يكون لديهم نفس الحق في تنظيم أنفسهم واعتبار أنهم مجموعة منفردة تسعى الى غايات مختلفة ، ولن تكون للمجموعة الكبرى أية وسائل دفاعية ضد تلك المجموعات الفرعية المنشقة سوى القوة ، وسرعان ما سوف ينهار بنيان المجتمع• فان القبائل أو العشائر المتنافسة بداخل نفس القبيلة ـ وذلك يتشابه كثيرا مع الوضع الذي واجهه الاسلام في بلاد العرب في أواخر القرن السابع ـ سوف تتشابك كل منها مع الأخرى في صراعات لا نهاية لها ولا أمل في حلها• ونجد أن تاريخ أوروبا المتمثل في الفترة التالية لحركة الاصلاح الديني لم يختلف كثيرا عن ذلك ، بالرغم من أن الوحدات المتصارعة كانت أكبر حجما الى حد بعيد•

وطبقا للاسلام ، نقول : انه ليس من الممكن أن تكون ثمة تفرقة بين الانسان وأخيه الانسان ، فالمجتمع الاسلامي مفتوح ، ويستطيع أي انسان أن ينضم اليه اما بصفته كعضو مكون أو بصفته قد أعطى الميثاق (أي باعتباره ذميا) ، كما أن المجتمع الاسلامي يجب أن يسعى لأن ينتشر حتى يشمل البشرية بأجمعها ، وان لم يفعل ذلك فانه لن يكون من الممكن أن تنطبق عليه صفة الاسلامية • ومن ثم فانه يستمر فقط في الوجود بصفته مجتمعا مسلما في انتظار ادماجه في مجتمع آخر سواء كان اسلاميا أو غير اسلامي •

ب ـ والمتضمن العملي الثاني للتوحيد فيما يتعلق بالمجتمع من الممكن تعريفه بأنه يتمثل في تطبيق أحكام المجتمع الاسلامي في جميع نواحي وأوجه الحياة الانسانية • ان ارادة الله ، أو القيم تتضمن كل الصلاح أينما توجد ، ويعد الصلاح بالطبع كلي الوجود ومن الممكن تطبيقه في جميع أوجه الحياة الانسانية • ويتبع ذلك أن المجتمع يجب أن يسعى الى تحقيق الارادة الالهية على جميع المستويات التي تستطيع أن تصل اليها وتؤثر عليها وتحولها الى الأفضل ، ولكننا لا نعنى بذلك أن المجتمع لا يستطيع أن ينظم تسلسلا هرميا للأولويات ، فان تكريس المجتمع لجزء كبير من اجمالي طاقته الى الدعوة أو الرسالة ، أو الدفاع ، أو التعليم أو التنمية الاقتصادية لن يؤدي الى اعتراض أي شخص •

ان الفقه الاسلامي والمبادىء الاسلامية قد صنفا الانشطة الانسانية بطريقة ملائمة في خمسة أنواع : الزامية (واجب) ومحرمة (حرام) ، وموصى بها (مندوبة) ، وموصى بعدم القيام بها (مكروهة) ، ومحايدة (مباحة) · لقد أعلن الاسلام قوانينه العامة ، المتمثلة في الشريعة ، ولقد عرض نموذجا للسلوك يتمثل في شخص النبي والصحابة ، وحث المسلمين والمسلمات على الاقتداء به ، وبالاضافة الى ذلك ، فان الاسلام قد وضع أسلوبا للحياة أعلنه من خلال الفلكلور (النثر) والشعر ، والمهرجانات والمناسبات العامة · وبالرغم من أن تلك الاجراءات تختلف في درجة القسر التي تتبعها ضد المنتهكين ، ودرجة الاحترام والتبجيل للملتزمين ، فانها تتماثل في افتراضها وثاقة صلة الاسلام بالنسبة لجميع الأنشطة التي يقوم بها الناس · ان أي مجتمع اسلامي يقصر نشاطه على وجه واحد أو وجهين من أوجه الحياة سوف يفقد ادعاءه الاسلامية · وفي تلك الحالة ، فانه سوف يتدهور حتى يصبح مجرد اتحاد عام أو مجتمع تعاوني ، يكون المبرر الوحيد لوجوده هو الايفاء بواحدة أو أكثر من الحاجات الاقتصادية ، أو الاجتماعية أو السياسية لأعضائه · ويعد المجتمع الاسلامي متماسكا لأنه مجتمع أيديولوجي ، أي أنه يسعى لتحقيق ما يضعه نصب عينيه من خلال الدولة · ان تلك الوحدة الكلية في العمل لم تكن هدفا للمجتمع فحسب ، ولكنها كانت سياسة ادارية للدولة (الخلافة) أيضا ·

وتفتقر المجتمعات الغربية الى مثل ذلك التماسك لأنها تعين أدوارا مختلفة لكل من المجتمع والدولة · وفي حين أن تلك المجتمعات في الواقع تمارس قوة كبيرة في اقامة التجانس بين مواطنيها وادماج الوافدين الجدد في ثقافة المجتمع ، فان دور الدولة يقتصر على ممارسة السلطة ، وذلك يرجع بصفة كبيرة الى التاريخ الطويل من اساءة استخدام السلطة والصراع بين الملكية ، والاقطاع ، والكنيسة وقوى الشعب ·

وكنتيجة لذلك ، فان نظام الحكم الدستوري بالنسبة لهم كان يعني أن الدولة يجب ان تستخدم السلطة السياسية فقط بالقدر الأدنى اللازم لاقرار الأمن الداخلي ، ولاقامة دفاع خارجي فعال ، وتوفير القدر الضروري من الخدمات الاساسية التي يتطلبها الصالح العام · وفي العصور الحديثة

فقط ظهرت مفاهيم مثل الصالح العام للطبقات المعوزة ، والمقدرة الابداعيـة ، ووقت الفراغ ، وتنظيم الصناعات والخدمات الاساسية · لقد كان الاساس الذي تم بمقتضاه تقييد السلطة السياسية للدولة في الماضي يتمثل في المبدأ القائل أن حالة الطبيعة فيما قبل تنظيم المجتمع كانت صالحة ومن ثم ليست في حاجة الى أي تدخل من المجتمع المنظم ، أو أنها كانت رديئة ومن ثم فهي تحتاج الى الحد الادنى الضروري للسيطرة عليها · وان الرأي الأخير ، الذي يعد أكثر شيوعا ، قد دعم موقفه بادعاء الأشخاص النزاعين للشك بـأن الصلاح يعد شيئا غير قابل للمعرفة ، وأنه ليس لدينا شيء سوى مجموعـة من الرغبات والأهداف الأخلاقية المتباينة،ومن ثم فان البديل الوحيد للاستبداد يتمثل في النسبية أو سياسة عدم التدخل · ولكن جميع تلك الأسس تتعارض مع الرأي الاسلامي القائل بأن الطبيعة تتسم بالصلاح والطهر ولكنها في حاجة الى اعادة صياغتها حتى تطابق النموذج الالهي ، وأن الارادة الالهية ، أو الصلاح يعد بمثابة شيء قابل للمعرفة عن طريق العقل ، وأيضا عن طريـق الوحى ، وأن الانسان يستطيع أن يقوم بفعل صالح أو ردىء ، ولكنه يعـد مسئولا عن كلا النوعين من أفعاله ·

ج ـ أما المتضمن العملي الثالث للتوحيد بالنسبة للمجتمع فهو مبـدأ المسئولية · فالحكم الذي يقوم على أساس اخضاع الفرد للدولة بطـريقـة تامة يكون دائما عرضة للتحول الى حكم استبدادي ، فان التنظيم المتسـم بالصرامة وسيطرة الدولة على جميع النشاطات يقضي على جهد المجتمع في التوصل الى القيم الأخلاقية ·ومن ثم تنشأ الحاجة الى مبدأ آخر لمواجهـة ذلك التدهور ·

وكل شخص ، كما يقول لنا الاسلام ، يعد مكلفا ، أي أنه يكون مسئولا عن تحقيق الارادة الالهية · ويقوم ذلك التكليف أو تلك المسئولية على أساس شعوره التعاوني الذي يشترك فيه مع أعضاء المجتمع ، وذلك الشعور الداخلي وفي نفس الوقت القابل للتربية يعد قوة يستطيع بواسطتها التعرف على خالقه، وادراك أنه يجب أن يقر أسلوب حياته بما يتماثل مع ارادة الله · ولذلك ، فان الاسلام لا يعلن فقط أن كل شخص يعد مسئولا ولكنه ينكر بصفة قاطعة كل افتراض يعارض انطباق مبدأ التكليف بالنسبة لأي شخص طالما هـو ليس

بطفل أو بناقص النمو · ان الاسلام يتوقع من كل شخص أن يقوم بأداء واجبه الشخصي بوعي تام ، ويقدم احترامه للأفراد وفقا لدرجة ايفائهم بمسئولياتهم· وذلك يعد نتيجة لطبيعة الأمانة أو الوديعة الالهية التي أودعها الله في الانسان ولقد كان لله أن يخلق عالما تتحقق به القيم بطريقة يتعذر تغييرها ، مع وجود القانون الطبيعي · وفي الحقيقة ، فان الله قد خلق بالفعل مثل ذلك العالم ، أي الطبيعة · والانسان فقط هو الذي خلق بطريقة مختلفة ، فقد منحه الله الحرية في الالتزام بالارادة الالهية أو انتهاكها ، ومن ثم منحه المسئولية عن أعماله ، وتلك المسئولية تعد جوهر الفضيلة لأنها لو لم توجد ما كان من الممكن اضفاء القيمة الأخلاقية على أي فعل ، وما كان من الممكن تحقيق الجزء الأسمى والأعظم للارادة الالهية ، ومن ثم ، سوف تواجه الارادة الالهية بالاحباط ، وان الاله الذى يعاني من الاحباط ليس هو الله الكائن فوق الوجود المادي والذي يتصف بالكمال الذي يشير اليه التوحيد · وسواء كانت الوحدة الكلية أو العالمية هي التي تسود المجتمع ، فان تحقيق القيم بواسطة المجتمع الاسلامي يجب أن يتسم بالمسئولية لو أنه أراد احراز أي قيمة أخلاقية · لقد أكد القرآن الصفة الشخصية للمسئولية ، وأنكر أي امكانية لتحويل المسؤلية ، سواء بالنسبة للفعل الصالح أو الفعل الآثم · ومن ثم ، فقد قضى الاسلام بأنه لن يكون هناك أي نوع من القسر ، وطالب كل شخص بأن لا يرتكب أي فعل يتسم بالقيمة الدينية الا بمقتضى قراره الشخصي النابع من ذاته (أى بمقتضى نيته) ، وذلك يعد الدليل النهائي لتروى الشخص بالنسبة للفعل الذي يقوم به، أي مسئوليته عن ذلك الفعل ·

وتنبع المسئولية من الرؤية الأخلاقية ، أي الايمان بالقيم ، وما يجب أن تكون عليه وما يجب أن تنجزه ، طبقا لترتيبها الصحيح · ومن الممكن قسر الانسان على القيام بفعل ما ، لكنه ليس من الممكن أبدا قسره على الايمان بشيء معين ، فان المسئولية الأخلاقية تقدم ضمانها الذاتي في هذا الصدد ، وعندما يكون ثمة قسر ، تنعدم المسئولية وتكون الفضيلة قد انتهكت · وفي حين أنه ليس من الممكن اكراه شخص على الايمان بالقيم ، فانه يمكن التوصل لذلك بالتأكيد عن طريق الاقناع من خلال التربية ، سواء عن طريق الأفكار العامة أو التعاليم الأخلاقية ، أو المنطق ، ومن خلال الأمثلة النموذجية ·

ونستطيع في هذا الصدد أن نعرف عمل المجتمع الاسلامي فيما يلي : انه يعاون البشرية بأجمعها على ادراك القيم التي تكون الارادة الالهية ، ثم تحقيقها بعد ذلك ، وذلك يعد بمثابة أسمى وأعظم معاني التربية· ان المجتمع الاسلامي يعد مدرسة عالمية تكرس كل جهودها الى التربية وتحقيق القيم ، ومثل ذلك النظام التربوي يتسم بالمسئولية ومن ثم يعد أخلاقيا ، وبتلك الكيفية فقط يمكن تحقيق الدرجات العليا للارادة الالهية ·

تلك هي متضمنات التوحيد بالنسبة للنظرية الاجتماعية · وفي الحقيقة فان تلك المتضمنات تؤدي الى ظهور الأمة التي تعد وجودا متحدا ، دستوريا ومدنيا ، لا يقتصر على البلدة ، أو الشعب ، أو الجنس ، أو الحضارة ، ولكنها تعد عالمية ، وكلية ، ومسئولة عن الناس ككل كما هي مسئولة عن حياة كل فرد من أعضائها ، وهي تعد ضرورية لتحقيق الفرد لسعادته سواء في الحياة الدنيا أو الآخرة ، ولتحقيق الارادة الالهية على مدى الزمان والمكان ·

د ـ المتضمنات الخاصة بالنظرية السياسية (الخلافة)

ان الأمة كما عرفناها فيما سبق ، تعد أداة لاعادة بناء العالم ، أو اصلاحه من أجل تحقيق الارادة الألهية ، فهي تعد خليفة الله في الكون ، فان صفة الخلافة تلك التي منحت للانسان في الأصل ، يجب أن تمتد الى الأمة للسبب الذي لخصناه في القسم السابق ، وان الأمة تعد أيضا دولة بمقتضى اشتمالها على عنصر السيادة ، واشتمالها على جميع الممارسات والتنظيمات التي يتطلبها عنصر السيادة · والاصطلاح الذي يجب علينا أن نطبقه على الأمة هو اصطلاح الخلافة ، وليس اصطلاح الدولة ، فان الخلافة تعد أكثر تطابقا مع التقاليد الاسلامية ومع مذهب التوحيد حيث تدين بعلاقة مباشرة معه ، وتأتي بمصدرها من القرآن · أما الدولة فهي فكرة حديثة،وغريبة تماما على الفكرة القرآنية للخلافة التي تعد بمثابة علة وجود الأمة ذاتها · وفي حين أننا نعني الدولة عندما نذكر الخلافة ، فان الفارق الجذري بين الفكرة الغربية عن الدولة وبين الأمة يجب ان يكون واضحا في أذهاننا ، ومن ثم ، فان

الخلافة تعد أمة عندما نشير الى صفة الخلافة التي تمنح للأمة ، وهي تعد أيضا دولة عندما نشير الى عنصر السيادة الذي تمارسه الأمة والذي يعد أساسيا ، ولكنه لا يتساوى في أهميته مع صفة الخلافة التي تحوز عليها الأمة ٠ وبتحليلنا للخلافة ، فاننا نقترح تحليل متضمنات التوحيد بالنسبة للنظرية السياسية :

وتعد الخلافة اجماعا ذا ثلاثة متضمنات ، هي : اجماع الرؤية ، واجماع الارادة ، واجماع العمل ٠

١ ـ اجماع الرؤية :

وهو يعني وحدة العقل أو الوعي ، ويتكون من ثلاثة أشياء ٠ الأول هو التعرف على القيم التي تتكون منها الارادة الالهية ، والحركة التاريخية التي نتجت عن تحقيق تلك القيم ٠ ومن الواضح أن تلك الرؤية تتسم بالصفة النظامية والتاريخية وتعد مكونات تلك الرؤيا لا نهائية في طبيعتها ، ومن ثم ليس من الممكن أن يكون الشمول التام شرطا لها ، وان ما يجب أن يكون شرطا لها هو أن تكون ذات صميم أو جوهر فعال ، فانها تعد بنيانا أو منهجا يتم بمقتضاه اقامة العلاقات والاستنتاج ، ووضع تسلسل هرمي للأولويات ٠ وحالما يتم ذلك ، سوف نتمكن من اكتشاف والتعرف على الأشياء التي كنا نفتقر اليها لتحقيق الشمول ٠ وينطبق ذلك بصفة خاصة بالنسبة للمعرفة النظامية للقيم التي تسند الى مصادرها من الوحى (أي القرآن وسنة النبي) ، والعقل ، من خلال فهمه لعملياته ذاتها (أي المنطق ونظرية المعرفة) ، والحقيقة بصفة عامة (أي ما وراء الطبيعة) ، والطبيعة (أي العلوم الطبيعية) ، والانسان (أي علم الانسان ، وعلم النفس وعلم الأخلاق) ، والمجتمع (أي العلوم الاجتماعية) ٠ وليس من المتطلب أن تكون الرؤية شيئا أكاديميا يتمثل في وضع صياغة منهجية لمضمونها ، سواء في حالة الوحي أو حالة العقل ، فانها تعد شيئا بديهيا ، أي أنها تتمتع بادراك حسى يستطيع أن يلقى الضوء على أي مجال من خلال ايضاحه وثاقة صلة الاسلام بالنسبة لذلك المجال ٠

ومن الناحية الأخرى ، فان التعرف على الحركة التاريخية التي ظهرت نتيجة لتحقيق القيم الاسلامية يعد بصفة أساسية شيئا تجريبيا ، وذلك هو السبب في أن المسلمين الأوائل كانوا دائما يسعون للحصول على بيان بتاريخ حياة النبي والقصص المستوحى من حياة الصحابة . وذلك النوع من الحاجة يصاحب كل مجتمع ديني لأنه مما يعد ذا أهمية كبيرة بالنسبة للمؤمنين أن ينتقلوا من مرحلة التأمل في الايمان الى مرحلة التعرف على كيفية تطبيق ذلك الايمان في الحياة الواقعية . ونستطيع أن نقول : ان النواحي الخاصة بتحقيق القيم يكون لديها تأثير بيداغوجي هام على الطلبة، وتعد أكثر سهولة في تذكرها وتأثيرها في الحواس والمشاعر عن محتويات الدراسة المنظمة ، ولكن كليهما يعد ضروريا بشكل متساو لايجاد الرؤية التي تعد ضرورية للخلافة .

وان الرؤيا التي تتكون من كل من الادراك المنظم للقيم ، ومن التجسد التاريخي لتلك القيم سوف تكون ناقصة، لو لم تكن لدينا معرفة بالحاضر وماهية الامكانيات المتوفرة في الحاضر لتحقيق تلك القيم من جديد .

ونظرا لأن الخلافة لا تستطيع البقاء بمجرد التطلع الى الماضي ، بل يجب أن تكرس نفسها للحاضر والمستقبل ، فانه من الضروري لها أن تربط القيم بالحاضر ، وتقرر نوع الوجود المادي الواقعي الذي يستطيع تحقيق القيم ، وتقرر أيضا ماهية القيم التي سوف يمكن تحقيقها بمقتضاه ، وكيفية تأثير الأحوال الراهنة على ترتيب أولويات القيم من أجل تحقيقها .

لقد افترضنا هنا أن اجماع الرؤية ـ طبقا لتعريفنا ـ مصدر من مصادر القانون الاسلامي ، ويحظى بكثير من التقدير باعتباره واحدا من المصادر المكملة للمعرفة الدينية ، وحديث النبي « لا تجمع أمتي على خطأ » قد أضاف هالة من شبه القدسية الى صوت الشعب في الأمة . ومع ذلك ، فان الاجماع لا يعد شيئا جازما ، ولكنه يظل دائما مفتوحا .. ، وذلك الانفتاح ، أي القدرة ـ بل الواجب ـ بالنسبة لكل مسلم عاقل لأن يأتي بمعان جديدة بالنسبة لجميع أو لجزء من الحقائق والقيم الاسلامية يعد شيئا أساسيا في الاجتهاد. ان الاجتهاد يعد بطبيعته ديناميكيا وخلاقا ، ويعتبر في حد ذاته متلائما تماما مع العقل الذي يتسم بالتبصر وحدة الملاحظة ، ولقد أضفى النبي القيمة

الأخلاقية أيضا على الاجتهاد من خلال حديثه « اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » · والاجتهاد والاجماع معا يكونان حركة ديالكتيكية أساسية للديناميكية الاسلامية في عالم الأفكار ، لأنه ، في حين أن الاجماع يعد مقدسا باعتباره تتويجا للجهود الهادفة للفهم ، فانه يكون قابلا للنقض من خلال النشاط الخلاق المتمثل في الاجتهاد وفي حين أن الاجتهاد يمر من خلال الضبط، والتطهير والانتقاد حتى يحوز على المقدرة الاقناعية لجميع المسلمين بشرعية نتائجه ـ من أجل أن تتم الموافقة عليه بواسطة الاجماع ·

٢ ـ اجماع الارادة :

يتكون اجماع الارادة من متضمنين : العصبية أو الشعور الجماعي الذي يلتزم المسلمون بمقتضاه بالاستجابة للأحداث والمواقف بطريقة واحدة ، واطاعة دعوة الله بطريقة متحدة ، والنظام أو الجهاز التنظيمي المنطقي القادر على بلورة القرارات ، وتعبئة المسلمين للايفاء بالدعوة ، وعلى ترجمة القيم الى أعمال يقوم بها الأفراد والجماعات والقادة ·

ان العصبية ، أو التماسك الاجتماعي ، لا تتماثل مع اجماع الرؤية ولا تعد نتيجة لها ، ولكنه يمكن ، بل ويجب ترسيخها وتعميقها من خلال ذلك الاجماع · وحقيقة ، فان الشعبية تعد مستحيلة بدون الاجماع ، فانه لو لم يكن ثمة شيء مشترك بين الناس ، لن يكون من الممكن أبدا ايجاد أي تماسك بينهم وتتطلب العصبية أكثر من مجرد اجماع الرؤية ، وهي تعبر عن نفسها في قرارها للتطابق مع الحركة وفي أن يطابق الانسان قدره مع قدر الأمة ، ثم يستجيب بشكل فعال لكل ما تتطلبه الدعوة ، أي أن تكون استجابته دائما متمثلة في الكلمة الايجابية «نعم» ويقوم ذلك القرار في حد ذاته على أساس مسيرة طويلة من التحول النفسي في العمليات التي بمقتضاها يماثل الفرد نفسه مع الأمة ، والتي يتجه شعوره في نهايتها الى الانجاز ، ومماثلة نفسه مع الخلافة باعتبارها المحور التاريخي للأمة · وتلك العملية النفسية من الممكن أن تكون هدفا للتربية وعلم أصول التدريس · وأينما توجد ،

فانها تكون مشذبة وعميقة ، ومن الممكن أن توجد بمقتضى الميلاد ، وتتم رعايتها في اطار القبيلة المغلقة ، ولكنها في تلك الحالة سوف تتطور حتى تصبح في شكل دافع أعمى متعصب يدعو الشخص لان يماثل نفسه مع قبيلته أو جنسه · ولقد أعلن ابن خلدون في هذا الصدد أن تلك العملية النفسية هي أساس التماسك الاجتماعي ، ونظرا لأن الاسلام يسمو على نطاق العناصر المادية ويعنى بمذهب التوحيد ، فان من الضروري أن تكون عصبية الاسلام نتاج عملية جديدة ، تتمثل في اتباع الانسان بطريقة دائمة وفعالة للصورة التي أراد الله له أن يكون عليها · ولذلك ، فانه يجب أن تكون هناك ارادة فعالة لتحقيق عصبية الاسلام وتعهدها بالرعاية ، وتطويرها وانضاجها · ولا يمكن أن تكون العصبية بمثابة نمو غير ارادي يتم عن طريق الطبيعة فقط ، أو أن تخلط بالمشاعر القومية للرومانتيكية الاوربية ، التي تتسم دائما باللا وعي ، والذاتية والابهام ، وانعدام التعمد وانعدام القابلية للتفسير ، والتي تعد في الحقيقة عصبية قبلية · فالعصبية الاسلامية شيىء متعمد ، وقابل للتفسير الواضح باعتباره فعلا اخلاقيا مسئولا · انها بمثابة التزام ، وارتباط بمصير الامة في الضوء الواضح للتوحيد ، وفي الضوء التام للسلسلة الكاملة من المعاني النابعة من التوحيد ، وتتجسد تلك العصبية الاسلامية في أسمى أشكالها في ترديد الحجاج في مكة لعبارة « لبيك اللهم ! لبيك ! » عند طوافهم حول الكعبة وشقهم طريقهم الى عرفات · ويتعارض ذلك تماما مع النظرة التخصصية العنصرية أو الثقافية التي تنتمي الى القومية الغربية على مدى القرون ·

وباعتبار أن العصبية عنصر أساسي للأمة العالمية التي تشمل جزءا كبيرا من الكرة الأرضية ، فان العصبية لا تكون مجرد حقيقة شخصية يكتشفها المسلم في لحظة ما ، وليس من الممكن أن تعتبر قوة غير مقيدة تقوم بالعمل والاستجابة للمواقف والأحداث طبقا لمشيئة المسلم ، لأن ذلك سوف يكون بمثابة نوع من الفوضى العالمية · ومن أجل أن تكون العصبية اسلامية في طبيعتها ومن ثم مسئولة ، يجب ان يتم تنظيمها حتى تتوافق مع عصبية جميع المسلمين الآخرين في الزمان والمكان والقوة والاتجاه ، وتترجم

نفسها في عمل تعاوني يتحد فيه جميع المسلمين سويا ، وذلك هو الوجه من النظام الذي بمقتضاه أعد الاجماع أذهان المسلمين لتفهم معاني التوحيد ٠ وان أسلافنا ، الذين كانوا يهدفون الى تحقيق النظام قد عرفوا جيدا أن كل مسلم يجب أن يحصل على الثقافة اللازمة ، وأن يكون واسع الاطلاع ، أي أنه يجب أن يكون عليما بقدر كبير من القرآن ، وأن يكون عليما بسيرة النبي وسير الصحابة ، كما يجب أن يتعرف على الجماعة القريبة من مسكنه (ويتعاون معها في خدمة الله) ويختلف الى اجتماعاتها التي تعقد في أي مسجد مجاور ٠ وان ما يعنيه الاسلام بوجوب تلاقي أكتاف المسلمين في وقت العبادة هو أن يشعر كل شخص بالوجود الفعلي للاخرين ، ويتم تعارفهم سويا ، ويسود التعاون التام فيما بينهم وبين الأمة ككل ، ويؤدي ذلك الى شعور المؤمن بأن الله هو المولى المهيمن ٠ ولقد كان الهدف من جميع ذلك هو وضع أساس نظام الخلافة ، ولقد كان المسجد حينئذ ــ وتلك أيضا هي الصورة التي يجب أن يكون عليها الآن ــ محورا للنشاطات الاسلامية ، ومركزا للنظام الاسلامي ، فقد كان المسلمون يتواجدون به يوميا ، ويتعاملون سويا تحت لواء التوحيد ، وكانوا يتلقون جرعة يومية من الفيتامين الروحي والأخلاقي والسياسي ، تتمثل في الحديث الذي يلقيه أي مسلم تحثه سعة معرفته وحكمته على الخطابة في زملائه ، وينطبق ذلك على الخليفة ذاته . ايفاء بالأمر الالهي « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وبرأي النبي حينما عزا الى النصيحة (النصيحة الحرة) نفس القيمة العالية التي تعزى الى الجهاد ، وتصل تلك العلاقات والمعاملات التي تقوم بين الشخص وزملائه الى أوجها في صلاة الجمعة عندما تكون خطبة الامام الدعامة الأساسية لها ٠ ولقد كانت الخطبة تتناول الوضع الراهن ، والمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تواجه المجتمع الاسلامي . واشتراط بأن تحتوي الخطبة على بعض الاشارات من القرآن والحديث كان يعني أن تتحدث الحكمة الاسلامية عن الوضع الحالي ومن ثم تظهر وثاقة صلة الاسلام بالحياة الواقعية ٠ وأخيرا ، ان الممارسة التي تقضي بأن يكون العامل أو الحاكم هو نفسه الامام في صلاة الجمعة كانت تهدف الى بلورة الاجماع الذي ينشأ عن التروي على مدى الأسبوع ،

أو الى التدبر في أسباب الفشل في التوصل الى الاجماع ، واستجماع قوة القيادة من جديد ، ومحاولة التوصل الى واختبار المرحلة التي يمكن فيها ايجاد حل للمشكلة السائدة ، وفي الاسلام ، تعد تلك الأشياء جميعها عبادة ، والتحويل الفعلي للطبيعة والناس قد كان هو الهدف الذي من أجله تم الايحاء بالقرآن ذاته ، وذلك يتمثل في الخدمات الواقعية التي يقوم بها الناس في ملكوت الله المتمثل في الكرة الأرضية ، باختلافها عن الطقوس النفسية التي يقوم بها النساك في الصحراء ، أو المعلمون الروحيون بالنسبة للمعاهدات الفيداوية ، أو التعذيب الذاتي ، أو الزهد في الحياة وازدراء التاريخ بالنسبة للنساك أيا كانت ديانتهم ·

٣ ـ اجماع العمـــل :

يمثل اجماع العمل ـ في الواقع ـ الذروة لجميع التدبيرات السابقة ، فانه يمثل التنفيذ الذي يتم البدء فيه بمقتضى الاجماع ، وهو يعد عملية تتماثل مع الديناميكية الخالدة الخاصة بجدلية اجماع الاجتهاد ، من حيث أنه لا يمكن أبدا القول بأنها تأتي الى نقطة نهاية يخول الانسان عندها الحق في دخول الجنة ، لأن تحقيق ارادة الله على مدى الزمان ـ والمكان يعتبر سعيا للانسان لا يصل الى نهاية الا في يوم الحساب · انها تتكون من اشباع حاجات الأمة ، ومنح كل شخص فيها التعليم الملائم الذي يؤدي الى الشعور بتحقيق ذاته ، وتقديم جميع الأدوات والوسائل الأخلاقية الضرورية لاقامة أسلوب دفاعي فعال عن الأمة ضد أعدائها الخارجيين وأيضا تحقيق الارادة الالهية في جميع أنحاء العالم ·

ان اشباع الحاجات المادية للأمة تعتبر جوهر الارادة الالهية ، ومن ثم جوهر الدين ، ونظرا لأن الله قد خلق الانسان ليقوم بالعمل من أجله ، باعتباره عاملا في ملكوت الله ، فان ذلك يقتضي أن الله يريد للانسان أن يقوم بحرث الأرض ، وأن يملك حق استخدام عناصر الطبيعة وقواها ، وأن يقوم بتطوير المدنية لصالحه · ولاثبات تلك الرؤية ، فان القرآن وصف الفقر بأنه وعد الشيطان ، وماثل اطعام الجائع وحماية الضعيف بالدين ذاته ·

ان ذلك يعد نتيجة لخلافة الانسان التي تمنحه الحق في التمتع بثمار ومتع الكون ، وخاصة اذا كان قد أدى واجبه تجاه الله · وبمقتضى الرؤية التي كانت سائدة في مملكة العراق ، فان فعل الخلق ذاته قد وضع الانسان في ملكوت الله بصفته عبدا لله ، ولكن ذلك الفعل كان أيضا بداية لتطبيق أعمال مثل الزراعة المنظمة ، وبناء السدود ومشاريع الري ، وتصريف المياه، وجمع وتخزين المحاصيل ، واختراع الكتابة وحفظ السجلات ، وأخيرا تأسيس نظام الحكم على مستوى القرية ، والمدينة ، والمحافظة ، ثم على مستوى الأمة والعالم · وباختصار ، ان فعل الخلق كان انتشالا للعالم من الفوضى ، وبدءا في تشييد الكون ·

ان أسلوب تفكير الشعوب السامية لم يستطع أبدا تفهم أشياء مثل الزهد في الحياة ، أو تعذيب الجسد التي كان يطبقها النساك ، ولم تستطع تلك الشعوب أبدا أن تنظر الى الجنس والانجاب والطعام والراحة باعتبارها أشياءا آثمة في حد ذاتها ، ودائما كان الرأي القائل أن تلك الأشياء تتسم بالاثم يسيىء اليهم ، ولم يؤمنوا به أبدا أو يعتبروه كشيء طبيعي ، فقد كان ذلك الرأي تراثا روحيا أورثته لنا المسيحية بكل ازدرائها للمادة الذي غرس بذور التنسك وزهد الحياة في الحركة المسيحية · ومن الحقيقي أن الاسلام قد فرض الصيام ، ولكنه فعل ذلك لهدفين ، وهما : ممارسة السيطرة على النفس ومواساة الفقير · ولكنه قد أمر أيضا في نفس تلك الآية القرآنية بأن يتم انهاء الصيام عند غروب الشمس حيث يستطيع الفرد أن يمتع نفسه بالطعام والشراب والمتع الحلال ·

ولكن ما هو مقدار الحاجات المادية للانسان التي يجب أن توفرها الخلافة من أجل أن تفي بما هو متوقع منها ؟ من السهل أن نقر الحد الأدنى من تلك الحاجات ، وهو يتمثل في تحقيق المستوى المعيشي الذي يتم بمقتضاه التخلص من المجاعات والأمراض وارتفاع معدل الوفيات · أما بالنسبة للحد الأقصى ، فليس من السهل أن نقوم بتحديده لأنه يصعب تحديد درجة استغلالنا للطبيعة أو تحديد القوى الطبيعية القادرة على انتاج الطعام · فان كليهما يعتبر دالا على سيطرتنا المتزايدة على قوانين الطبيعة

التي أقرها الله لصالح الانسان · وكما يقول القرآن ، فان كل شيىء في السماء والأرض قد أقيم لصالح الانسان ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع » ولقد أعلن عمر أيضا ، وهو ثاني الخلفاء ، أنه يخشى أن يحاسبه الله في يوم الحساب عن كل دابة تتعثر في سيرها أو تسقط على الأرض الغير معبدة في أقصى قرية من قرى مملكته ·

ان الاسلام – بطبيعة الحال – يأمر بفعل الخير مثله مثل كل دين آخر ، وباطلاقه اسم الصدقة على ذلك الفعل ، فانه يعني اعتبارها كدليل وتعبير عن صدق ايمان الشخص ، ولكن الاسلام في نفس الوقت قد وضع شيئا خاصا به يميزه عن جميع الديانات ، وهو نظام الزكاة التي تعد بمثابة ضريبة سنوية عن الثروة تساوي ½ ٢ في المائة ويتم جمعها بمقتضى القانون العام · وبتسميتها الزكاة ، فانها تهدف الى تأكيد أننا نكون قد ارتكبنا ذنبا لو لم ندفع الزكاة السنوية عن ثرواتنا · وقد اكد نظام الزكاة للمحرومين أنه ليس من واجب الأغنياء فقط أن يعطوهم صدقة أو احسانا ، بل ان المحرومين يخولون الحق في الحصول على جزء من ثروة الأغنياء ، ولقد حرم الاسلام الاحتكار ، والتخزين ، وألغى الفائدة باعتبارها الأداة الرئيسية لاستغلال الانسان لأخيه الانسان · ومن الناحية الأخرى ، فان الاسلام أوصى الانسان بأن يسعى للحصول على نعم الله في كل مكان ، وأن يتنقل ويهاجر بحثا عن تلك النعم ·· بل وأن يسعى الى الحصول على أقصى ثروة ، ولكن بمقتضى القانون الأخلاقي ، أي بدون ارتكاب خديعة أو احتيال ، أو سرقة أو سلب · وحالما يكتسب الانسان تلك الثروة ويجمعها ، عليه أن يدفع عنها الزكاة ، بل ان صدق نية المالك لتلك الثروة يثبت عن طريق دفعه الصدقة ·

ومن واجب الخليفة بالتأكيد أن يفعل ما في وسعه حتى يمكن كل فرد في الأمة من أن يحصل على نعم الله في الكون ويتمتع بها · ولكنه اذا أصبح ذلك هو الهدف الوحيد والنهائي للحياة الانسانية – مهما يتصف بالنبل والضرورة في بادىء الأمر – فسرعان ما سوف ينحدر بالانسان الى الانحطاط للمرتبة الحيوانية ، ويطمس الشخصية الانسانية ويخون العهد

بالنسبة للارادة الالهية · ولكن الحاجات المادية في حد ذاتها لا تتصف بالاثم بل وتعتبر في الحقيقة شيئا حسنا ، ويجب اشباعها الى أعلى درجة ، ولكن تلك الحاجات المادية ، أو الوجه المادي للحياة ذاته الذي يجب تدعيمه يعد فقط وسيلة أو أداة للتوصل الى النواحي الروحية ، سواء بالنسبة للفرد أو الأمة ككل · أما النظر الى تحقيق الأشياء المادية باعتبارهما الغاية النهائية ، فهو يعني الانكار للناحية الروحية ·

ولا نعني أن الناحية الروحية تعد عديمة الجدوى أو أنها تخلو من عنصر التحول النفسي اذا اعتبرناها بديلا للحياة التي تهدف الى تحقيق الأشياء المادية · ان الحياة الروحية في الاسلام تنقسم الى ثلاثة مراحل يجب اتباعها في نفس الوقت · المرحلة الأولى هي انشغال الشخص بالاهتمامات المادية العامة للأمة ، ويتمثل ذلك في اخضاع الشخص احتياجاته المادية الشخصية الى متطلبات العمل الموحد للأمة · والمرحلة الثانية هي سعي الشخص للحصول على الثقافة لنفسه وللاخرين ، وذلك يتم على مستويين ، أي أن ازدياد السيطرة على الطبيعة سوف يزيد من مقدرة الانسان بالنسبة لاستغلالها ويجعل تلك المهمة أكثر سهولة ، وأن جدلية اجماع الاجتهاد سوف تصبح أكثر ديناميكية ، وابداعا وتحقق أعلى الدرجات للارادة الالهية · أما المرحلة الثالثة فهي بلورة رغبات الأمة والهامها وتقدمها في انتاجها من الأعمال الفنية على مدى مسيرتها ، واستمرارها في تحقيق وتجسيد القيم أو الارادة الالهية على مدى التاريخ ·

أما المكون الثاني لاجماع العمل فيتمثل في تزويد كل فرد في الأمة بالثقافة الى المدى الذي يمكنه من التوصل الى أقصى درجة من تحقيق ذاته · ولو لم يقم الشخص بتطوير واستغلال جهوده الشخصية الى أقصى درجة ممكنة فانه لا يكون قد أوفى بالتزاماته الخاصة بصفته عبدا من عباد الله ، ولن يحصل على السعادة ، وان الأمة التي تتكون من مثل هؤلاء الأشخاص تكون مجتمعا عديم الجدوى ، ودائما ما تقع تلك المواهب الشخصية المختزنة ، وتلك الطاقات الغير مستغلة ، وتلك الحيوية المختزنة فريسة للاغراء بتحقيق الكيان الذاتي خارج نطاق الأمة أو التآمر لتقويض الخلافة وتدميرها · ويجب على الخلافة أن تقوم بشيئين : أن تخلق الحاجة

التي تمكن تلك القدرات الكامنة في الأشخاص من الظهور على السطح ، وأن تقدم الوسائل التي تمكن الأفراد من تحقيق كيانهم · واذا فشلت في المهمة الأولى ، فانها ستكون أمة مكونة من الجهلاء السذج الذين لم يفيقوا بعد من سباتهم · واذا فشلت في المهمة الثانية ، فانها تكون قد أفسحت المجال للهجرة التي تؤدي الى انقاص أعداد أفرادها ، أو للتدمير الذاتي الذي يأتي من الداخل ، أو للحرب والاستغلال الخارجي اللذين يأتيان من الخارج ·

ان الخلافة ــ من أجل الايفاء بمتطلبات اجماع العمل ــ يجب أن تعبىء الأمة ، وأن تزودها بكل ما هو ضروري لاقامة الدفاع الفعال ضد أي هجوم عليها من أعدائها ، وان ذلك الأمر لا يكون شيئا تطوعيا ، بل ان جميع الأعضاء يجب أن يجندوا في المعركة عندما تتعلق المسألة بتهديد وجود الأمة ذاتها ، أو عندما تتعلق المسألة باعلاء كلمة الله في العالم ·

وفي التحليل النهائي ، فان تلك الناحية لاجماع العمل ، أي مساهمة الأمة في عملية تطبيق الاسلام في العالم هي التي تعطيها أعظم السعادة ، وان تلك الناحية من مهام الأمة هي التي ترفعها الى ذلك المستوى من النضال الذي يتعلق بتاريخ البشرية ، وان أي انجاز تقوم به الأمة على هذا المستوى يعد التبرير النهائي لوجودها أمام الله ·

(هـ) متضمنات التوحيد فيما يتعلق بالسلطة السياسية:

١ ــ الاسلام والعالم الاسلامي : الحقائق المحزنة :

ان العالم الاسلامي ــ الذي يتكون من حوالي ثلاثة أرباع بليون نسمة يعيشون في المنطقة الممتدة من الاطلنطي شرقا الى الباسيفيكي ، وقد ابتدءوا الآن في الانتشار في أوروبا والامريكتين ــ يعد ذا امكانية عظيمة لاعلاء كلمة الله في العالم ، ولسوء الحظ بالنسبة للبلدان الاسلامية والعالم أن تلك البلدان لا تزال بعيدة عن تطوير أو استغلال قدراتها في سبيل الله ، فهي في واقع الأمر تحتفظ بتوازن مضطرب للغاية بين استغلالها لقدراتها من أجل تحقيق التطور فيها ، وتبديدها لتلك القدرات في جهود غير ذات جدوى في الداخل ، وفي جهود بناءة ولكن لصالح غير المسلمين ·

ان الأغلبية العظمى لدساتير البلدان المسلمة تنص على أن الاسلام هو الديانة الرسمية للدولة ، ولكن السعودية فقط هي التي تبدي جدية في ذلك ، تتمثل في تطبيقها للشريعة · ويوجد عدد من الدول الأخرى ، مثل باكستان ، والكويت التي تدعى أن الاسلام هو علة وجود الدولة والأمة ، ولكنهم يضيفون الى ذلك الفكرة الغربية بأنهم يعدون أمما أو دولا لأنهم يتكونون من شعوب وأقاليم وسيادة ·· وذلك اعتبار يفترض بصفة مباشرة أن الاسلام غير ملائم لأن يكون بمثابة علة الوجود · أما النوع الثالث مثل مصر ، والمغرب ، والسودان ، الخ فيعتبر أن الاسلام ضرورة تظهر كحلية على السطح · في حين يصاغ البنيان والتركيب الداخلي وفقا للأفكار الغربية وليس الاسلامية ·

أما القومية ، التي تعد شعوبية جديدة ، والتي تحاكى الرومانتيكية الغربية ، فتنص على قوانين الهجرة واتخاذ الجنسية ، وادارة شئون الدولة الفعال بالنسبة للقادة ، وأسلوب حياة المثقفين ونخبة القوم ، والصورة الاجتماعية التي يجب أن يماثل الشخص نفسه معها والتي تعرض للعامة من خلال التعليم والالهام · ولا توجد أي بلدة اسلامية تحافظ على استمرار التعبئة واليقظة بها مثل نموذج مجتمع النبي طوال فترة قيادته في مكة · ولعل أسوأ صفات العالم الاسلامي هي أنه لا يوجد أي دستور في أي مكان يهدف الى تولي المسلم بالرعاية منذ سن الخامسة ، ويعمل على تثقيفه وتدريبه بهدف تحويل الكون والبشرية بشكل فعال الى ما يشابه النمط الالهي الذي يتم بمقتضى وعيهم أن ذلك النمط الالهي يعد في حد ذاته الغاية النهائية من وجود الانسان · ان النسبة المئوية من المهاجرين المثقفين والمواطنين عديمي الجدوى بالمقارنة مع اجمالي عدد حملة الدكتوراه والأطباء تعد مرتفعة بشكل مخيف ، وبالاضافة الى ذلك ، فان نسبة الأميين الى المثقفين تعد مروعة · وليس المقلق أن المسلمين قد بدءوا الان فقط في الاستيقاظ من سباتهم ، أو أن مجتمعاتهم تتسم بضعف قواها الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية ، أو أن دولهم تترنح في خروجها من الخمول والسبات في ايقاعات متقطعة ، ولكن الشيىء المقلق هو افتقار القادة المسلمين في الأمة ·

الى البصيرة في تلك الفترة العصيبة من الحاضر والمستقبل ، وما نلاحظه من انعدام أي جهد مبذول لبناء شخصية المواطن المسلم ـ الذي لن يزداد التزامه بالاسلام في القرن الواحد والعشرين عما هو عليه الآن ـ يعد نتيجة لذلك الافتقار الى البصيرة ·

٢ ـ بشائر السلطة السياسية :

لا يوجد مسلم ملتزم يستطيع أن يتفهم أو يقبل الأعذار التي طالما قدمها الساسة المسلمون حول النقائص المحزنة للأمة في القرن العشرين · وليس هناك أي شخص يقبل النقاش القائل بأن المبادرة في الاصلاح يجب أن تأتى من العامة قبل أن يكون من الممكن ممارستها بواسطة القادة في الخلافة ·

وبالطبع لدينا أعداد وافرة من المثقفين الذين لديهم معرفة واسعة ، ولكن ما نحتاجه في تلك الفترة من التاريخ هو الشرارة التي تلهب ارادة الأمة وتحثها على الحركة ، وذلك يأتي فقط من القادة الذين يملكون الاستعداد لانجاز تلك المهمة الخطرة ، أي التدخل في التاريخ والقيام بدور الفاعل ، وليس المفعول به ·

ان تدخل الأمة الاسلامية في التاريخ يبتدىء من الداخل ، ويتمثل في البناء المتمهل الهادىء للخلافة · ولا نستطيع القول أن هذا يحدث في الوقت الحالي في أي دولة مسلمة ، وحالما يتم التأكد من ثبات الأساس الذي يقوم البناء عليه ، فانه يجب على الخلافة أن تعبىء العالم الاسلامي بأجمعه وتستدعيه للحركة ، ويجب تحقيق تلك الغاية بأي ثمن فيما عدا انحلال نظام الخلافة ذاتها · ولكنه من الممكن ، بل ومن الواجب التضحية بمجموع الأعضاء من القادة اذا تطلب تحقيق تلك الغاية ذلك الأمر ، وحالما تكون الأمة على استعداد لذلك ، فاننا سوف نتمكن مرة أخرى من تحقيق عهد للخلافة يتماثل مع عهد أبي بكر · وحينئذ سوف تكون لحظة من أعظم اللحظات التي يمكن أن نمر بها في تاريخنا ·